

بحث رقم (3)

فرائد البنية التناظرية في النص القرآني (دراسة أسلوبية إحصائية مقارنة)

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالبحرين، جامعة الأزهر

المجلد الثامن والثلاثون، العدد الأول، إصدار يونيو 2020

مُلَخَّص:

تقوم الدراسة على تطبيق نظرية (روبرت لوث) في دراسته الشعر العبري المقدس في العهد القديم (التوراة)، حيث أشار روبرت لوث إلى قيام الشعر العبري في النص التوراتي على بنية تناظرية واضحة. قسم روبرت لوث البنية التناظرية في التوراة إلى ثلاثة مظاهر:

- التناظرية التقابلية.
- التناظرية الترادفية.
- التناظرية التركيبية.

وفي ضوء نظرية روبرت لوث تكونت هذه الدراسة من مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة .

- تناولت المقدمة موضوع الدراسة وأهم مصطلحاتها ومنهج الدراسة وصعوباتها والدراسات السابقة ..
- تناول المبحث الأول قضية المقارنة بين القرآن والتوراة في البنية التناظرية التقابلية.
- تناول المبحث الثاني قضية المقارنة بين القرآن والتوراة في البنية التناظرية الترادفية.
- تناول المبحث الثالث قضية المقارنة بين القرآن والتوراة في التناظرية التركيبية.

وقد طرحت هذه المباحث عددا من التساؤلات المنهجية حولتَوْعَ التوازي التبادلي (التضادي) في دراسة

روبرت لوث للعهد القديم بين تضادٍ في الكلمة، وتضادٍ في العبارة على ما يتسق مع تفرقة المصطلح البلاغي

العبري بين الطباق والمقابلة، ولكن "لوث" قد أضاف تنوعا جديدا لطباق الكلمات، هو المطابقة بين مفرد

ومفرد، والمطابقة بين جمع وجمع .. كما أضاف لوث المقابلة بين التضاد البسيط والتضاد المركب حيث

يتسق التضاد المركب مع القسم الثاني من أقسام المقابلة القرآنية التي تتعدد أطرافها عند الزركشي الذي قصد

به ورود الطرفين الثانيين للطباقيين في العبارة وفق ترتيب الطرفين الأولين. وأفصحت الدراسة المقارنة بين

معدلات التكرار في الألفاظ المتقابلة في النص القرآني ونظيرتها في النص التوراتي عن تفرد النص القرآني

باتساق ملحوظ في أعداد الألفاظ المتقابلة على وجه غير مكرور. ويدل الضبط الممنهج للمتواليات العددية

في النسق التكراري لكلمات القرآن الكريم على حقيقة واضحة مؤداها أن كلام الله الذي نزل على محمد ﷺ منجما عبر ثلاثة وعشرين عاما هو قول واحد لإله واحد وما هو بقول مخلوق ولو كان كذلك لما جاء مسبوكا على هذه الحال البليغة في الضبط والحصر، وفي هذا السياق تتبدي أهمية أمية النبي محمد ﷺ، لأنه لو كان قارئاً كاتباً لظن المرجفون أنه هو من عدّد هذه المقابلات وحصرها، وإن افترضنا - جدلاً - هذا الاحتمال فلماذا لم يشر إليه وقد بذل فيه هذا الجهد المضني؟ وعلى الرغم مما أحيطت به المناهج الإحصائية الرياضية من سوء الظن من جانب كثير من الدارسين فيما يخص ما يمكن أن تحققه من نتائج - حيث يجمع عدد كبير من الدارسين على أن "النتائج المادية لهذه المناهج لم تقدم تفسيراً مناسباً في مجال الدراسات الأدبية، حيث إن لهذه النتائج طاقة توضيحية محدودة، فتقابل هذه الموضوعات الكبيرة ضآلة في أهمية نتائجها"، وقد أفصحت النتائج التي ترتبت على دراسة الإبداع الأدبي وفق هذه المناهج الرياضية عن خلل كبير تحقق من جرّاء إخضاع إبداع يصدر من الشعور ويعبر عن الذوق الذي يتأبى على المادة ويستعصي على المنطق العقلي إلى مقاييس مادية ومعايير ذهنية، ولكننا - وعلى الرغم من ملامح القصور الملحوظة في هذه المناهج الإحصائية فيما يخص الدراسات الأدبية - نجد هذه المناهج قد حققت نجاحاً كبيراً في تطبيقها على النص القرآني، وذلك لأنّ هناك النص الإلهي قد منح هذه المناهج الإحصائية الرياضية نتائج هائلة الخطر تتسم بقدر غير مسبوق من المصادقية والحسم. وقد انفرد النص القرآني بتحقيق التناظر على مستوى السورة، حيث بنيت السورة القرآنية على تناسب مٌطرد تحقق عبر التقابل أو الترادف بين أول السورة وآخرها، وهو ما لم يتحقق في النسق التناظري التوراتي. وأفصحت المقارنة بين النص القرآني والنص التوراتي في شأن البنية التناظرية على مستوى العبارة عن تفرد النص القرآني في محورين: أولاً: مبدأ العدول عن المضادة المعيارية/القياسية. ثانياً: مبدأ "التعليل" أو (علاقة الشكل بالمضمون). ولم تتحقق الرؤية التعيدية المعيارية للمقابلة بوصفها نقيضاً للمساواة والترادف في الموروث البلاغي العربي بهذه الصورة المحكمة إلا على يدي السكاكي وتلامذته من البلاغيين المتأخرين، أما البلاغيون المتقدمون ومن تتكب معايير السكاكي من البلاغيين المتأخرين فقد اتسمت رؤاهم البلاغية بقدرٍ هائلٍ من العمق والنفاد، حيث تعاملوا مع المقابلة بوصفها تعبيراً جمالياً يحتوي التضاد والترادف معاً، وهو ما يتجلّى في معالجات قدامة بن جعفر وأبي هلال العسكري وابن رشيق القيرواني وحازم القرطاجني والزرکشي لهذا الفن .. وقد قسم لوث التوازي الترادفي في التوراة إلى خمسة أقسام، القسم الأول يتكرر فيه المعنى دون اللفظ والقسم الثاني يتكرر فيه المعنى واللفظ

معا، والقسم الثالث تكرر فيه العبارة الثانية جزءا من العبارة الأولى لفظا ومعنى أو معنى فقط، والقسم الرابع تترادف فيه ثلاث عبارات بطريقة خاصة، حيث يترادف السطر الثاني مع السطر الأول، ثم يشير السطر الثالث إلى كلا السطرين السابقين، وهو الوجه الذي أطلق عليه "لوث" تسمية (المتوازيات الثلاثية)، والقسم الخامس حيث يتألف المقطع من أربعة أسطر يشير السطران الأخيران فيها إلى السطرين الأولين (بالتناوب)، حيث يترادف السطر الثالث مع السطر الأول ويترادف السطر الرابع مع السطر الثاني.. وقد اكتفى لوث بالإشارة إلى اختلاف الأشكال المترادفة دون أن يقدم تعليلا معنويا لها على غرار الدراسات القرآنية، كما لم تطرح أسفار التوراة تصورا ذا دلالة في شأن التناظر الترادفي على مستوى النص فطلت الدراسات التوراتية منحصرة في إطار الكلمة والجملة، في حين طرح النص القرآني تصورات إحصائية ذات دلالات هائلة في إطار التناظر الترادفي في مجمل النص القرآني .. وقد تحققت في النص القرآني تناظرية عديدة متكررة في كثير من ألفاظه المترادفة والمتقابلة في آنٍ ، وهو ما شكل خواص أسلوبية Stylistic Markers لا تخضع في تفسيرها لنظرية المصادفة، ولكنها عبرت عن نهج مقصود في النص الكريم يختلف به هذا النص عما دونه من النصوص المقدسة، وهو ما أثبتته الدراسة من خلال الموازنة بين نواتج الإحصاء العددي للألفاظ المترادفة في القرآن والتوراة .. واتسعت ظواهر التناظر والتوازي في النص القرآني على وجه لم يتكرر فيما دونه من النصوص المقدسة وخصوصا العهد القديم، حيث انبنت السورة القرآنية على تناسب نمطي بين أول السورة وآخرها على وجه مطرد .. وتكررت في القرآن الكريم ظواهر التوازي التركيبي التي رصدها روبرت لوث في التوراة .. ولم يخص روبرت لوث التوازي الإيقاعي في التوراة بحديث خاص، لكنه جعل التوازي الإيقاعي أحد تجليات التوازي التركيبي، وهو ما لم يقع في الدراسات القرآنية التي فصلت بين ظواهر التناظر التركيبي وظواهر التناظر الإيقاعي التي أفردت لها درسا مستقلا كان من تجلياته علم الفاصلة القرآنية، وقد اتسق هذا الاختلاف بين الدراسات القرآنية والدراسات التوراتية مع الاختلافات الجذرية في السياق الثقافي والحضاري لكل من النصين المطروحين للدراسة .. وفي دراسته ظواهر التوازي الإيقاعي في النص التوراتي لم يشفع لوث هذه الظواهر بأية مسوغات فنية تتعلق ببنية المعنى، وهو ما لم يقع في الدراسات القرآنية التي علقت القيمة الموسيقية المتحققة في مقاطع الآيات بالقيمة المعنوية التي تحملها وتعبر عنها . وبعيد استواء الكتب المقدسة في صفة التوازي طرح نظرية وحدة الأصل الديني الذي صدرت منه التجليات الدينية المختلفة، حيث تتفق كل المصادر الدينية المختلفة زمنيا ومكانيا في عدد من الظواهر تأتي ظاهرة التوازي

على رأسها .. ويؤكد استواء كل الكتب المقدسة في استخدام ملمح التوازي بوصفه ملمحا ملتصقا بالطبقة الدينية على تفرد النص القرآني في هذا المنحى المشترك بين كل النصوص الدينية .. وأفصحت الدراسات الإحصائية لمفردات التوراة عن عدد من الدلالات ذات الأهمية القصوى في سبيل إدراك حدود الاتجاه الروحي في النص التوراتي، ففي حين وردت مفردة الدنيا خلى النص - تماما - من ذكر مفردة الآخرة أو مترادفاتهما مثل القيامة أو البعث أو النشور أو يوم الحساب، وفي شأن ثنائية الطهر والإخلاص طوفت مفاهيم مفردات الطهارة حول دلالات النظافة المادية (نظافة الجسد) دون أن تتطرق إلا في نذر يسير إلى التعبير عن دلالات الطهارة المعنوية (طهارة النفس)، وبالمثل تضاءلت المدلولات الروحية لمفردات الإخلاص، بل لم ترد لفظة (الإخلاص) في أي موضع من العهد القديم، كما لم ترد كلمة (بخلص) ولا الفعل (أخلص) ولا الإسم (مخلص) ووردت لفظة (خالص) وحسب 19 مرة منها 13 مرة مضافة إلى كلمة الذهب في التعبير الإضافي "الذهب الخالص"، وهو الأمر الذي يفتح بابا وسيعا لدراسة دلالات هذا الارتباط الشرطي بين مفردات بعينها في النص التوراتي من خلال ما يطلق عليه الأسلوبيون الإحصائيون تسمية (المصاحبة اللفظية) "Connotation" ..